الأستاذ ماهر الحاج علي

" يا ناصيبْ شِدّ وصيبْ"

... ويتحسّسُ دربَه بعصاهُ الأمينة، فإذا هي تُبصرُ الدربَ وتُرشِدُهُ اليه... يسير مطرقاً رأسهُ، اليدُ اليُمنى قابضةٌ على العصا والشرايينُ بارزةٌ كالجداول المتجمّدة، تنتشرُ تحتَ الجلدِ المتجعّدِ، وتحكي قصة الإرهاق والتعب...

العينانِ مغمضتان والذقنُ مرتفعةٌ لجهة الفم الفارغ حتى من الأسنان...

الخدّانِ هزيلان والجسم متقوقع وكأن الذي يستعرُ في داخله ألقى عليه ظلالاً فجاء بعيداً عن الإستواء والإستقامة...

يأتي المدينة منذ الصباح وملءُ اليد اليسرى أوراق اليانصيب : إنها الزادُ والرأسمال... تأكلُ الطريقُ من ضيعته الى النبطية من عمره وينالُ منه الوهن والمرض والجوع أحياناً... العافيةُ تتراجعُ والقوةُ تتضاءلُ... أما الإصرارُ ففي تزايد... فمن غيرهُ يُطعِمُ العائِلةَ من العرقِ والأعصاب؟! عند المساء سيتحلّقُ أولادهُ حوله وتروح المطالب تنهالُ عليه، فالقسط لايمكن تأخيرُه وزوجتهُ المسكينة لم يشترِ لها ثوباً منذ سنة... فهي تغالبُ الأيامَ بثوبٍ عتيقٍ ملّ لقاء الإبرة وبات يتوجّع منها وهي تصلُ شُتاتَهُ كلما تمزق...لا... لن يكون أبنائي مثلي، سأدفع

وحدي ضريبة العذاب ... أولادي سيكبرون ولكنهم لن يعيشوا كوالدهم الضرير... لا أريدهم يتعذبون مثلي... أريدهم أفضل مني ومن أولاد الذوات...

لمحتُهُ صباح الإثنين من على شرفة منزلي تائهَ الدربِ، محدَودَبَ الظهرِ، مائلَ الجسمِ على العصا الأمينة وهي تسبقُ خُطاهُ البطيئة المتعثرة نحو السوق... كان يستكشفُ الطريق بحذر، ويلوّحُ بها ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشمال، كمن يُعاينُ منطقةً مزروعةً بالألغام... فإذا لامستْ عائقاً أبْعدَتْ صاحبها عنه، وإذا ارتطمَتْ بسيارةٍ مركونةٍ الى جانب الطريق نبّهَتهُ اليها، فيمدُّ يده اليسرى المثقلة بعناء "البضاعة" متحسساً إياها، ليسيرَ بعد ذلك بجانبها آمناً مطمئناً... الرِجْلانِ تكادانِ تلتصقانِ أثناء المسير، والرجفةُ تجتاحُ الجسمَ من أعلاه الى أسفله... أهو الخوف يا تر ى أم التعب أم العجز ؟ يجتمع كل ذلك بيقيني ليقلّلَ من خُطى ذلك الضرير...

ما ذنب هذا الانسان؟ إنه لايلوي على شيء في حياةِ البؤس هذه سوى على حالة الفقرِ التي يعيش والتي تأكلُ منه كل أجزائِه...

رُحتُ أتابعُ مسيرته بكل أحاسيسي... تملكني الخوفُ عليه من سيارةٍ تعبرُ أو من دراجةٍ طائشة تواكبُ رعونةَ صاحبها ... ولما هممتُ عن بعدٍ بالإسراع لمساعدته، سبقني الى ذلك رجلٌ مسنٌ صادف مروره في تلك الأثناء، فأخذه بيده ، تأبّط كَتِفَهُ، وبعد أن دار بينهما حديثٌ قصير، غيّر الضريرُ اتجاهَ سيرِهِ... كنت أظنه يقصدُ سوقَ الإثنين...

لا، أنه يطلبُ من مساعده التوجّهَ به نحو بناية البنوك... لعلَّ السوقَ هناك أسْوَغ!... ولما غابَ الإثنان عن ناظريَّ، تخيّلتُ بقيّةَ الرحلة الشّاقة : فاعلُ الخير هذا سيتركهُ وحيداً...

صوتهُ المتهدّجُ سوف يعلو قرب البنوك:"تعا جرِّبْ حظكْ باللوتو..."

يا نصيب شِدّْ وصيب ... إنه اليا..نصيب الذي يشدُّ ويُصيب أحياناً بالغنى، بل بالبَطَرْ... وأحياناً كثيرة بفقدان البصيرة والبصر...